جيل الخلافة

سلسلة أجنحة غزة الصامدة

7

حين رتّل الجرح

منى حسام

مكتبة الطفل

سلسلة أجنحة غزة الصامدة

7

حين رتّل الجرح

منى حسام

جيل الخلافة

مكتبة الطفل

فِي غُرْفَةٍ صَغِيرَةٍ دَاخِلَ مُسْتَشْفَى مِيدَانِيّ فِي قِطَاعِ غَزَّةَ، كَانَتْ رَائِحَةُ الدَّمِ وَالْحَدِيدِ تَمْلَأُ الْمَكَانَ، وَصَوْتُ الْأَجْهِزَةِ الْقَدِيمَةِ يَمْتَزِجُ بِأَنِينِ الْجَرْحَى.
تَحْتَ ضَوْءٍ خَافِتٍ يَصْدُرُ مِنْ هَاتِفٍ مَحْمُولٍ، يَعْمَلُ الْأَطِبَّاءُ بِجُهْدٍ خَارِقٍ لِإِنْقَاذِ الْأَرْوَاحِ، فِيمَا تُصَارِعُ الْحَيَاةُ الْمَوْتَ عَلَى طَاوِلَةٍ صَدِئَةٍ وَمُغَطَّاةٍ بِقِطْعَةِ قُمَاشٍ زَرْقَاءَ.

عَلَى تِلْكَ الطَّاوِلَةِ، كَانَ يَرْقُدُ طِفْلٌ فِي الثَّانِيَةِ عَشْرَةَ مِنْ عُمُرِهِ، وَجْهُهُ مُغَطًّى بِالْغُبَارِ، وَسَاقُهُ تَنْزِفُ جُرْحًا عَمِيقًا؛ لَا بَنْجَ، وَلَا دَوَاءَ، وَلَا كَهْرَبَاءَ، كُلُّ مَا فِي الْغُرْفَةِ كَانَ يَصِيحُ بِالصَّبْرِ وَالْأَلَمِ.

اقْتَرَبَ الطَّبِيبُ مِنَ الطِّفْلِ، نَظَرَ إِلَى زُمَلَائِهِ بِعَيْنٍ مُرْتَجِفَةٍ، وَقَالَ بِصَوْتٍ مَبْحُوحٍ مِنَ الْإِرْهَاقِ:
«سَنَعْمَلُ الْآنَ، لَا نَمْلِكُ خِيَارًا؛ إِنْ تَأَخَّرْنَا أَكْثَرَ، سَنَفْقِدُهُ.»

شَدَّ الطِّفْلُ طَرَفَ الشَّرْشَفِ الْمُمَزَّقِ بِيَدِهِ الصَّغِيرَةِ، وَوَضَعَهُ عَلَى فَمِهِ لِيَكْتُمَ صَرْخَتَهُ، لَكِنَّ شَيْئًا آخَرَ حَدَثَ. بَيْنَمَا لَامَسَتِ الْأَدْوَاتُ الْجُرْحَ، خَرَجَ مِنْ بَيْنِ شَفَتَيْهِ صَوْتٌ خَافِتٌ صَافٍ وَجَمِيلٌ، يَتْلُو آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ:
«قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا»

تَجَمَّدَ الطَّبِيبُ فِي مَكَانِهِ لِلْحَظَةٍ، ثُمَّ تَابَعَ عَمَلَهُ وَدَمْعَةٌ حَارَّةٌ تَسْقُطُ عَلَى كُمِّهِ الْأَبْيَضِ، أَمَّا الطِّفْلُ، فَتَابَعَ تِلَاوَتَهُ، يَرْتَجِفُ صَوْتُهُ بَيْنَ الْأَلَمِ وَالْإِيمَانِ، حَتَّى امْتَلَأَتِ الْغُرْفَةُ بِنُورٍ مِنَ الْقُرْآنِ.

الْمُمَرِّضُونَ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِصَمْتٍ هَمَسُوا بِدَهْشَةٍ وَخُشُوعٍ:

_ اللَّهُ! انْظُرُوا إِلَيْهِ! يَقْرَأُ وَهُوَ يُخَاطُ الْجُرْحَ!

كَانَتِ الْآيَاتُ تَتَرَدَّدُ بَيْنَ الْجُدْرَانِ الْمُتَهَالِكَةِ، فَتَغْدُو مُسَكِّنًا مِنْ نَوْعٍ آخَرَ، لَا لِلْجَسَدِ، بَلْ لِلرُّوحِ. فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ، تَجَدَّدَتِ الْقُوَّةُ فِي قُلُوبِ الْجَمِيعِ: الطَّبِيبِ، وَالْمُمَرِّضِ، وَحَتَّى الْجَرْحَى وَمَنْ حَوْلَهُ؛ وَحِينَ انْتَهَتِ الْعَمَلِيَّةُ، كَانَ الطِّفْلُ قَدْ غَفَا بِصَوْتٍ خَافِتٍ يَهْمِسُ:

ـ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا.. حَبِيبِي يَا اللَّهُ؛ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

جَلَسَ الطَّبِيبُ إِلَى جَوَارِهِ، وَضَعَ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ وَقَالَ فِي نَفْسِهِ:

_ يَا بُنَيَّ، أَنْتَ أَقْوَى مِنِّي وَمِنَ الْحَرْبِ كُلِّهَا، وَأَقْرَبُ إِلَى اللَّهِ مِنَّا جَمِيعًا.

رَدَّ الْبَطَلُ الصَّغِيرُ عَلَيْهِ:

_ أَنَا بِحِبّ رَبَّنَا يَا عَمُّو، عَشَانْ هِيك أَنَا صَابِر!

وَفِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، لَمْ يَكُنِ الْأَلَمُ هُوَ مَا سَيَطَرَ عَلَى الْمَكَانِ، بَلِ الْقُرْآنُ وَهُوَ يُرَتَّلُ مِنْ فَمِ صَغِيرٍ فِي قَلْبِ الْجِرَاحِ، لِيُعَلِّمَ الْعَالَمَ كُلَّهُ أَنَّ الْإِيمَانَ فِي قَلْبِ طِفْلٍ مُؤْمِنٍ صَابِرٍ، لَا يُخَدِّرُ الْأَلَمَ، بَلْ يُوقِظُهُ بِالْيَقِينِ.

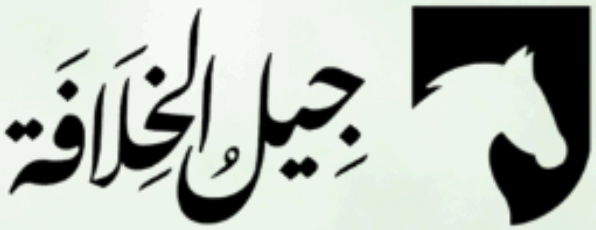

www.ketaeb.com